البعد النفسي المعجمي في ديوان ابن الرومي (ثنائية الحياة والموت مثالاً)

الباحثة : سجى حسن علي أ. د. كاظم فضيل شاهر

جامعة القادسية / كلية التربية ـ قسم اللغة العربية

Kathem.shaher@qu.edu.iq

تاريخ استلام البحث : ٢٠٢٦/٤/٣٠

تاريخ قبول البحث : ٢٠٢٦/٦/٣

الملخص:

هدف هذا البحث هو استقراء الأثرِ النفسي ودراسته, والذي صاغ هذه الثنائية المتقابلة في ديوان ابن الرومي، إذ يتتبع ويبين كيف انكسرتِ ذات الشاعر أمام حتمية الفناءِ وتجلّيات انكساراته في كيفية انتقاء ألفاظه. ومن ثم سعى إلى تبيان العلاقة الوثيقة والترابط بين تجربةِ الشاعر وفواجعه الذاتية، وبين طرائقه في صياغة العبارة؛ إذ أصبح الموت في لغته حقيقةً شاخصةً تخطف أمان الحياة وأملها، فتحولت الألفاظ عنده من دلالتها المجردة إلى دلالةٍ نفسيّةٍ يغلبها القلق. وبناءً على ذلك، كشف البحث عن التجربة الذاتية للرومي وأثرها في شعره وصولاً لصراعه النفسي مع ثنائية الموت والحياة التي تجلّت في ألفاظه الشعرية التي شكلّت وبوّبت معجم ديوانه؛ لإثبات براعته في صياغة نصه الشعري الذي تتقابل فيه المتناقضات تقابلًا يجمع بين صدق العاطفة ومتانة الصنعة اللغوية.

الكلمات المفتاحيّة : البعد النفسي ، المعجم، ابن الرومي ، الحياة والموت ، الثنائية الضدية

The psychological and lexical dimension in Ibn al-Rumi's Diwan (the duality of life and death as an example)

Researcher : Saja Hassan Ali Pr.Dr. Kazem Fadil Shaher
University of Qadisiyah / College of Education
Kathem.shaher@qu.edu.iq

Date received: 30/4/2026
Acceptance date: 3/6/2026

Abstract:

The aim of this research is to study and analyze the psychological impact that shaped this opposing duality in Ibn al-Rumi's poetry. It traces and demonstrates how the poet's self was broken by the inevitability of death, and the manifestations of this brokenness in his choice of words. Furthermore, it seeks to reveal the close relationship and interconnectedness between the poet's experience and personal tragedies, and his methods of crafting expression. In his language, death becomes a stark reality that snatches away life's security and hope, transforming words from their abstract meanings to psychological ones imbued with anxiety. Accordingly, the research revealed Rumi's personal experience and its impact on his poetry, leading to his psychological struggle with the duality of death and life, which manifested in his poetic words that formed and categorized the lexicon of his Diwan, to prove his skill in formulating his poetic text in which contradictions are met in a way that combines the sincerity of emotion and the strength of linguistic craftsmanship.

Key word: Psychological dimension‹Lexicon‹Ibn al-Rumi‹Life and Death‹Opposite Duality.

توطئة البحث :

إنّ الولوجَ إلى عالم ابن الرومي النفسي لا يمرّ عبر بوابات التشاؤم التقليدية بل عبر تجربة إنسان مأزوم عاش وحدته وسوءِ حاله كأنّها قيد يطوّقُ عنقَهُ، في هذا البحث سأسعى الى استنطاق تلك الروح التي لم تكن تتشاءم ترفًا بل كانت تتطيّر خوفًا؛ فابن الرومي الذي سكن الخوف روحه أصبح يرى الحياة بعين المودِّع، فلا يكادُ يفرحُ بإشراقة حياةٍ حتى يداهمه رعبُ فقْدِها. وأرى أنّ التجربة الذاتية لابن الرومي هي حكاية خناق وجودي حيث تحوّلت فيه اللفظة لديه من أداة للوصف الى صرخة للاحتماء، وسيتبين لكم كيف أكل الخوفُ أطرافَ روحه، وكيف تجسدت ثنائية الحياة و الموت في شعره صراعًا بين أملٍ مهزوم ويأسٍ يفرض سطوته، وبين طمأنينة مفقودة وخوفٍ يسكن أدقّ تفاصيل يومه .

فإنّنا بصددِ تحليل شاعر لم يكتب عن الموت بدمعه فحسب بل كتبه برعشة يده ووحشةِ وحدته، نحاول فيه أنْ نلْتمس أثر هذا الصراع الداخلي في ثنايا أغراضه، لنفهم كيف استحالَ الفضاءُ الشعري لديه إلى مرآة تعكس نفسًا كانت ترى الموت يتربص بها حتى في لحظاتِ النور .

الأوّل : التجربة الذاتية و أثرها في اللفظة الشعرية :

التجربة الذاتية: تجربة: معرفة أو حكمة عملية تكتسب ممّا يراقبه الإنسان أو يعيشه، أو ممّا يحصل من الأمور العامة. أو هي: حدث أو سلسلة أحداث يشارك فيها الإنسان أو تحدث له ممّا يترك انطباعًا قويًّا في الفعل أو الأحاسيس[١]. والتجربة الشعورية هي ردُّ فعل نفسي لحدث مؤثر، وبعبارة أدق: هي استجابة وجدانية لمثير ما: ماديًّا كان أم معنويًّا [٢].

إنّ التجربة الذاتية عند ابن الرومي ليست مجردَ أحداثٍ جرت له، بل هي عذاب روحه التي عُصرت بالألم؛ فاللفظة الشعرية لديه ولدت من رحم الفقد المتوالي الذي لم يترك له مساحةً ليتنفس، وتبدأ هذه التجربة بفواجع الفقد لأهله واحدًا تلو الآخر من أمّ وخالة وأخ وزوجة وأولاد، وكأنّ ألفاظ الموت هي من تختاره لا العكس، فيقول في رثاء ولده [٣]:

ألا قَاتَلَ اللهُ المَنَـايَا وَرَمْيَهَا مِن القَوْمَ حَبَّاتُ القُلوبِ عَلَى عَمْدِ
تَوَخّى حِمَامُ المَوْتِ أَوْسَطَ صِبْيَتِي فَلِلهِ كَيْفَ اخْتَارَ وَاسِطَةَ العَقْدِ

وفي هذين البيتين نلتمس أثر تلك اللحظة القاسية التي مرّت على ابن الرومي، فتجده يطلب من الله أنْ يقاتل ذاك الموت الذي أخذ ابنه، فأصبح بهذا الفراق الأبدي يرى في الضوء نذيرًا للظلام وفي الشباب مقدّمةً للزوال .

وأجدُ أنّ تجربة الفقد المريرة هذه هي من جعلت ألفاظ الموت المركز الذي يدور حوله شعر ابن الرومي حتّى وهو في قمّة مديحه وهجائه، فهو دائمًا ما يختم قصيدته بقلق النهاية لهذا تحسّ بخنقة الصدر التي كان يشعر بها قد انتقلت إلى حروفه فصارت الكلمة لديه تخاف من بقائها كخوفه من لحظات أمانه، فتخرج اللفظة مشحونة بالتطيّر فهو الذي عاش الوحدة وسوء الحال، ليؤكد في كلّ بيت أنّ تجربة الوجع هي التي صاغت لغة الموت في ديوانه, كما هو موضح في الجدول أناه:

ألفاظ الحياة	ألفاظ الموت
أون	أجل
بشر	بلو
بعث	ثكل
بقي	جدث
جود	حتف
حظظ	حدد
حيي	حرب
خلد	حمم
خلص	دفن
دنو	دمي
دهر	ذبح
دوم	رجم
رهم	ردي
روح	رفت
روض	رمح
زفر	رمس
زمن	رمم

زهر	سهم
سعد	سيف
سقي	صرع
سلم	ضرح
شبب	طعن
شفي	غرق
شيب	فجع
صبب	فدي
صبو	فني
عذل	قتل
عمر	قوس
عود	لحد
عيش	منن
غيث	مني
فتي	موت
فرح	نحب
قلب	نحر
كهل	نعش
لهو	هلك
مطر	يتم
مهد	
موه	
نبض	
نجو	
نشر	
نفس	
نقذ	
هجر	
هرم	
هطل	
همر	
هوي	
وقي	
ولد	

يوّضح الجدول أعلاه إحصائية للألفاظ التي اعتمدتها في دراستي لمعجم ألفاظ الحياة والموت في ديوان ابن الرومي, وطبعًا لكُل لفظة مشتقّات ولعدد الألفاظ والاشتقاقات الهائل, ذكرت هنا فقط الأصل المعجمي لهذه الثنائية, حيث قامت الدراسة على (ألف ومائتان وستة_ لفظة موت) و(أربعة آلاف وتسعمئة وخمس وستون_ لفظة حياة), وكان المجموع (ستة آلاف ومئة وواحد وسبعون) لفظة, وعلى الرغم من الهيمنة العدديّة لألفاظ الحياة في الديوان, إلّا أنّ هيمنة ألفاظ الموت المعنوية هي مركز شعره كما ذكرتُ.

وابن الرومي ليس كغيره من الشعراء الذين يمدحون من أجل المال فقط، أو يهجون لمجرد الخصومة. فابن الرومي كان يعكس ذاته المتأزمة ووحدته في كُلّ غرض شعري يطرقه، فالتجربة الذاتية عنده في المرآة السوداء التي يرى بها كُلّ شيء .

لمّا يشرع ابن الرومي بالمدح لا يكتفي بوصف الممدوح بل يُدخل تجربته الذاتية مع الفقر، والجوع، وسوء الحال، فهو يمدح لأنّه خائف من الحاجة، ولأنّه يرى الممدوح حياة تنقذه من موت الفقر، فتجد لفظات اليأس، والغصّة، والعجز تقتحم قصائد المديح لأنّ ذاته الجائعة هي من تكتب، ومع ذلك فهو لا يُثاب على مديحه لهم فيتوالى عليه الحرمان واليأس في نفسه؛ لأنّه فقد الشعور بوجود آخر يستحق أن يكون موضوعًا لمديحه، وهو كان يخاطب العقول لا الأسماع ومن هنا شكواه ترتد عليه واللائمة تعود عليه، فيقول(٤):

يَقُولُونَ لي: أَلْفَاظُ هَجْوَكَ عِنْدَنَا إلى القَلْبِ مِنْ أَلْفَاظِ مَدْحَكَ أَسْبَقُ
فَقُلْتُ لَهُمْ: كِذْبٌ مَدِيحِي فِيكُمُ وَهَجْوِي لَكُمْ صِدْقٌ وَلِلصِّدْقِ رَوْنَقُ

أمّا الهجاء فأثره كان كبيرًا في تجربته الذاتية وهو عنده لحظة الصدق القصوى، فهو ليس مجرد شتائم منظومة بل انعكاس لحالة النفور وجحود الناس معه، فاللفظة تخرج مشحونة بحرارة روحه المخذولة وهذا ما يفسر تفوّق ألفاظ هجائه على مدائحه، فابن الرومي يشغله الناس والتدبر بأمورهم وكان سيء الظن بهم وأقول: بل هم هكذا لا يحبّونه ولا يقرّبونه فقال ما قال فيهم من الشتم بسبب ما عاناه، ومن يُحارب يُبالِغ في ردّة فعله لهذا يعدّ لهم كفايته من المعاني التي تقيه شرورهم، وكأنّ هذا الهجاء درع نفسي يحمي به ذاته المكسورة وسلاح يذود به عن كرامته التي جرحها خذلان الممدوحين، ويظهر هذا الأثر واضحًا حين يصف الشاعر وقع كلماته على خصومه، رابطًا بين القسوة اللفظية والوجع الجسدي. كما في قوله (٥):

لِتَخْرِقَ فِي المَسَامِعِ ثُمَّ يَتْلُو هِجَائِي مُحْرِقًا يَكْوَى القُلُوبَا

فالبيت يبرُز النرجسية الفنية عند ابن الرومي وثقته المطلقة, وقصائده تخرق الآذان بشدتها وفصاحتها, فهي أشبه بنار محرقة تصيب قلوب المهجُوّين بألم لا يمكن مداواته أو نسيانه، منه قوله [٦]:

أَلَمْ تَرَ أَنّنِي قَبْلُ الأهَاجِي أُقَدِّمُ فِبـــأوَائِلِهَا النَّسِيبَا
كَصَاعِقَةٍ أَتَتْ فِي إثْرِ غَيْثٍ وَضِحْكُ البيض تَتْبَعُهُ نَحِيبَا

فهذا هجاء نابع من صدمة الواقع فالغيث الأمل الذي ينقلب صاعقة والضحك ينقلب نحيبًا، وهذه هي فلسفة حياته التي عاشها خوفًا دائمًا من زوال النعمة وانقلاب الصديق، ممّا جعل معجمه الهجائي يضجّ بألفاظ التشاؤم والتطيّر تعبيرًا عن رغبته في إيقاع الآخرين في ذات الخناق النفسي الذي يعانيه.

وهذه خيبة الأمل عند ابن الرومي في عتابه لصديقه قاسم بن وهب وتحول الأمل عنده إلى يأس قاطع، حيث صوّر الشاعر خيبة رجائه في صديقه بصورة مؤلمة، قوله [٧]:

فَكُنْتُ كَمُسْتَسْقٍ سَمَاءً مُخِيلَةً حَيًا ، فَأَصَابَتْهُ بِإِحْدَى الصَّوَاعِقِ

وهذه الثنائية (الاستسقاء، الصواعق) تعكس نفسية الشاعر التي لا تجد في الحياة وسطًا؛ والألفاظ الشعرية في عتابه لم تكن مجرد لوْمٍ، بل كانت تصويرًا للصدمة النفسية التي يتلقاها من يطلب المطر فيُصاب بالصاعقة، فكان هذا الصديق رمزًا كسر طمأنينة الشاعر لتبدأ أبياته في استدعاء ألفاظ الفجيعة والخذلان والعتاب.

وقوله [٨]:

مَنْ كَانَ يَبْكِي الشّبَابَ مِنْ جَزَعٍ فَلَسْتُ أَبْكِي عَلَيْهِ مِنْ جَزَعِ
لِأَنّ وَجْهِي بِقُبْـحِ صُورَتِهِ مَا زَالَ لِي كَالمَشِيبِ وَالصَّلَعِ
أَشَبُّ مَا كُنْتُ قَطُّ أَهْرَمُ مَا كُنْتُ، فَسُبْحَانَ خَالِـقِ البِدَعِ
إذَا أَخَذْتُ المِرْآةَ أَسْأَفَنِ وَجْهٍ وَمَا رُعْتُ هَوْلَ مُطَّلَعِ

وتجربته الذاتية لم تبدأ بفقد الأحبة أو خذلان الأصدقاء والناس، بل بدأت من اغترابه عن ذاته وشعوره المبكر بالفناء والذبول، واسْتُدِلّ من هذه الأبيات أنّ الشاعر كان يرى الموت والمشيب كامنين في وجهه منذ شبابه، فالقبح الجسدي في نظره لم يكن سوى نذيرٍ للفناء المبكر.

وقوله: (هول مطّلعي) تكشف عن صدمة الشاعر حين يقف أمام المرآة، حيث يرى الهول الذي يُفترض أن يُرى عند الموت، يراه وهو مازال حيًّا.

وأجدُ أنّ هذه الرؤيا السوداوية للذات قد تركتْ أثَرًا غائرًا في ألفاظه، إذ غدت لفظات (القبح، والهرم والهول، والجزع) هي الأدوات التي يشرح بها علاقته بجسده والعالم، ممّا يُؤكد أنّ الموت في شعره لم يكن حدثًا خارجيًّا ينتظره، بل كان يسكن مرايا ذاته ويُفسد عليه نضرة الشباب.

الثاني : ثنائية الحياة والموت وأثرها الشعري

يرى ابن الرومي الحياة و الموت وجهين لعملة واحدة يتصارعان داخل قصيدته، فهو يعيش في حالة تضاد دائم، وهذا التضاد هو ما ولّد الصراع بين هذه الثنائية، فالشاعر لا يكاد يفتح بابًا للرجاء حتّى يغلبه التطيّر وهذا ما أشار إليه العقّاد؛ بقوله: " وابن الرومي جسم مشدود للتعذيب بين قطبين متجاذبين، فمن جهةٍ هو في زمنه الذي لم يخلق لغيره، ومن جهة هو في الزمن الوحيد الذي لم يخلق له، ولم يتزود له بآلة: ابن الرومي الشاعر في عصر الحياة والإحساس والدراسة والموالي فهو بخير، وابن الرومي الرجل في عصر الدهاء والخبث والصراع الجهنمي، فهو بشرِّ ما يكون عليه مثله، ولا سبيل إلى الافتراق بين الشخصين، ولا سبيل كذلك إلى التوفيق بينهما على حال!"[٩].

فهذا المزاج السوداوي جعل ابن الرومي يعاني من الحياة، فهو من جعل الأمل عنده مجرد حلمٍ هشٍّ يسهل كسره باليأس، فشاعرنا لا يرجو الحياة إلّا وهو يتوجّس من الفجيعة. ويذكر د.علي شلق في كتابه عن ابن الرومي في الصورة والوجود : "وإرادة الحياة عند كُلّ فرد، هي نفسها لدى كُلّ فرد آخر، أذن فهنالك وحدة شاملة، هذه الوحدة التي نُدفع اليها ندركها بشيء اسمه ((الحبّ)) وبه نتحلل من كُلّ ألم؛ لأنّ مصدر شقائنا هو شعور كُلّ فرد بوحدته التي هي شر"[١٠]، وكيف تتحقق إرادة الحياة عند شخص توالت عليه المصائب والمحن! كيف سيظفر بالحبّ من كان وحيدًا! ، يقول [١١]:

وَلَمْ تَذْكُرِ الغُرْمَ الّذي قَدْ غَرِمْتَهُ ... مِنَ العُمْرِ المَاضِي وَيَا لَكَ مِنْ غُرْمِ
رَأَيْتُ حَيَاةَ المَرْءِ رَهْنًا بِمَوْتِهِ ... وَصِحَّتَـهُ رَهْنًـا كَـذَلِكَ بالسُّقْمِ
إِذَا طَابَ لِي عَيْشٌ تَنَغَّصْتُ طَيبَهُ ... بِصِدْقِ يَقِينِي أَنْ سَيْذَهَبُ كَالحُلْمِ

بينما يرى بعضهم أنّ الحبّ أو التشبث بالبقاء يحقق إرادة الحياة، نجد أنَّ هذه الإرادة قد تحطمت لدى ابن الرومي، تحت وطأة فواجع الفقد المتتالية. فقد صار الموت هو الحقيقة الوحيدة المطلقة التي ترهن حياته وتقيدها، فلم تعد الصّحة عنده إلّا انتظارًا للسّقم ولم يعد العيش إلّا غُرمًا يُدفع من رصيد العمر.

وتتجسد معاني هذه الأبيات بفلسفة الترقّب الفاجع، فابن الرومي رجلٌ سكن الموت في وعيه لدرجة أنّه صار يمارس تسميم لذة عيشه بيده، فكلّما طاب هذا العيش استدعى يقين الزوال ليُفسد به طيب اللحظة، واصفًا تلك اللحظة بالحلم الذي لا دوامَ له، وأرى أنّ ثنائية الحياة والموت هنا حُسمت لصالح الفناء؛ فالحياة ليست انتصارًا عنده بل بؤس مقيم عند كُلّ نفس يستنشق خنقة القدر.

يذكُر العقاد أنّ أبا حسن مختلُ الأعصاب وتكثر الأشباح في وهمه، فالرجل السليم عنده لا يتشاءم فهو دائمًا ينتظر من الدنيا خيرًا. أقول: صحيح. لكن هل جرّب انتظار الخير وأنْ يأمل من الدنيا فرحًا وهي تنهش روحه وتأخذ أحبابه واحدًا بعد الآخر؟

أنا لي منظورٌ عن أبي حسن يختلف تمامًا عن كُلّ الآراء التي سبق الحديث فيها عنه، وطبعًا أنا لا أنفي النزعة التشاؤمية في قصائده، لكن هو في النهاية إنسان ولكُلّ إنسان طبيعة نفسية تختلف عن غيره، وهكذا أرى أنّ أبا حسن قد تعب من المقاومة، تعب من الأمل والتشبث بالحياة، ويتشبث بها من أجل من؟ فلم يبقَ عنده ما يبتزه الألم، أمّا هذا الصراع الذي ترونه يدور بين هذه الثنائية فما هو إلّا روحٌ قد غلب عليها التعب، فهو لكثرة الخسائر من فلذات الكبد بات كالمجنون لا مجنونًا!

وهو كُلّما أراد أنْ يطمئن ويتفاءل تذكر غدر الدّنيا والزمن، كأنّ اعتراه تبلّد الإحساس وصرفه عن الحياة ولهوها وعن كُلّ سعادة فيها، حتى لا يُصدم بخيبة أمل جديدة، قوله [١٢]:

فَرِحْتُ لا أَرْجُو وَلا أَبْتَغِي وَتَـــاقَتْ النَّفْـسُ فَكَفْكَفْتُهَا

فهو في هذا البيت قتل إرادة حياته بيده حتّى لا يتألم، وكأنّه مسح دمع رغبته قبل أن تسيل، فغدت طمأنينته تتحقق بقتل الأمل حتى يرتاح من ألم الانتظار، وهنا حيث ينتصر اليأس درعًا واقيًا من صدمات الزمان .

وهذه الثنائية في معجم ابن الرومي لم تكن مجرد تقابل لغوي، بل كانت صراعًا وجوديًّا انتهى بهيمنة الفناء، وانكسرتْ إرادة الحياة أمام توالي المواجع، وصارت الطمأنينة حُلمًا يطارده الخوف ولا سبيل لتحققها عنده، هذه الثنائية لا ترى النعمة إلّا بعين الزوال ولا تأمل البقاء إلّا وهو مكبّل بآثار الفقد، فأصبحت لغته الشعرية سجلًّا للتوتر الدّلالي الذي ينتصر فيه الموت.

ثالثًا : الصراع الداخلي و أثره في الأغراض الشعرية

الصراع عند ابن الرومي: هو نزاع بين روحين في جسد واحد، الأولى تتمنى الموت وتمجّده، والثانية تخاف أنْ تتفاءل في الحياة ويفجعها الموت. ويذكر إبراهيم فتحي "هو ذاك التضاد السيكولوجي داخل النفس، كصراع بين الرغبات داخل الشخصية، وصراع بين الإنسان ومجتمعه، وحتّى ذاك التذمر والتضارب بين الإنسان قدره"[١٣]. إذ **يقول الرومي** [١٤]:

وَرَأَيْتُ الحِمَامَ فِي الصُّوَرِ الشُّنْـ عِ ، وَكَانَتْ لَوْلَا القَضَاءُ قَضَاءَ

ابن الرومي يلقى شبح الموت ماثلًا في الأشكال القبيحة، وهذا القلق الوجودي عنده لم يكن مجرد فكرة ذهنية، بل رؤية بصرية موجعة فهو يرى الموت شاخصًا في كلّ صورة قبيحة، وذاك الخناق النفسي الذي تولّد بفعل الصدمات الدائمة حولّ عالمه الشعري الى ساحة يطارد فيها القبح جوْهر الحياة، وتتحول هذه الصورة الشنعاء إلى السمْع حتى يكتمل حصار الفناء عليه، إذ يقول [١٥]:

شَنْعَاءُ فِي الآذَانِ تُقْـ لِقُ كُلَّ روحٍ فِي جَسَدْ

فهذا القلق كان حصارًا حسّيًّا يطبق على روح الشاعر من جهتين، عين ترى الموت يتربص به في كلّ قبْحٍ، والآذان هنا تنقل هذا القبْح حتى يُزلزل استقرار روحه، ويقتلع سكينتها ويجعلها في حالة اضطراب دائم داخل سجن الجسد، وهذا التصوير كشف عن هشاشة جسد مستباح لا يقوى على حماية روحه من صدمات القبح الخارجي . وهذا الانكسار النفسي لابن الرومي والصراع المرير مع عالم يراه ويسمعه قبيحًا، هو من سيعيد تشكيل مسارات أغراضه الشعرية و يصبغها بصبغة من التوتر والتمرد تلائم انكساراته الداخلية .

١-المدح :

هو خطاب أو قصيدة تلقى بشكل علني يكون محورها الإشادة بمناقب ومحاسن وإنجازات شخص أو جهة أو مؤسسة أو هيئة [١٦]. والمدح عند ابن الرومي لم يكن غرضًا تقليديًّا يهدف الى كسب الرضا، بل كان صراعًا حادًّا بين عوزٍ ماديٍّ فرضته الظروف القاسية، وبين أنفة ذاتية تأبى الخضوع .

وقوله [١٧]:

مَدِيـحُكَ مَنْ تَعْتَفِي فَضْلَهُ هِجَـــــاءٌ، وَلَكِـنّهُ مُلْغِزُ
وَمَنْ رَامَ بالشِّعْرِ رِفْدَ امْرِئٍ فَفِي جُودِه عِنْدَهُ مَغْمَزُ

في هذه الأبيات اعتراف بالهزيمة النفسية فالشاعر هنا يمارس مديحًا مسمومًا، فهو يمدح بلسانه لكنّه يغرس سيف الهجاء في البيت نفسه، والصراع هنا يكمن في أنّ ابن الرومي لا يستطيع أنْ يكون مدّاحًا ذليلًا كغيره، فجاء مديحه عبارة عن لغز في مضمونه غضبًا لاذعًا على مجتمع لا يقدّر كرامة الإنسان، ولا يعطيه حقّه إلّا بعد أنْ يعتفي فضله بمديح يشبه الذم، فابن الرومي في مديحه كان يدافع عن بقايا كرامته التي يمزقها قلق الحاجة، فخرجت قصائده مليئة بالارتياب، لا يطمئن فيها الممدوح ولا يسكن فيها قلب الشاعر.

فهو عنده الكريم الحقيقي والذي يستحق المدح من يسبق عطاؤه سؤال الشاعر ولا يضطره للمتجارة بشعره، ويذكر الدكتور علي شلق "المدح ليس من طبيعة ابن الرومي، فهو يرى نفسه يرتفع فوق مستوى الآخرين، وهو يسمو عليهم ولا يعلون على مساحب مطارفه، فكيف يرضى شاعر كابن الرومي ذو كفاءات لا حصر لها، أنْ يقدّم لبعض هؤلاء الحمقى المحظوظين في شعره، ولا يقابلونه الا بالتغافل والمماطلات؟"[١٨].

٢- الهجاء :

أدب غنائي يصوّر عاطفة الغضب أو الاحتقار والاستهزاء. وسواء في ذلك أنْ يكون موضوع العاطفة هو الفرد، أو الجماعة، أو الأخلاق، والمذاهب [١٩].

والهجاء عند ابن الرومي هو سلاح الأعزل الذي يذود به عن ذاته الجريحة، وهو وسيلة لترهيب واقع مرّ حاول سحقه، والمتنفّس الوحيد لروحٍ كبّلها الحزن، فالشعر يُنسي الواقع وكان الخلاص لشاعرنا، فبينما كان يمدح مقهورًا مجبرًا لكنّه يهجو مطاوعًا، وإنْ كانت حياته لا تستحق لكنّه لن يتنازل. حتّى وصل به الحد يصف نفسه بالحقد ليخيف الذي يستوطئون جانبه ويريدون إرضاءه بعد الغضب.

والهجاء لم يكن مجردَ إسرافٍ لغويٍّ بل ضرورةٌ سيكولوجيّةٌ فرضتها طبيعة الصراع مع الوجود، وبفقد أحبّته وعدم قدرته على مواجهة القدر فصبّ جامَ غضبه على الآخرين، ولكن هذا الهجاء لم يكن رغبةً وحبًّا وإنّما هجاهم لكي لا ينهار أمام ثقل القلق الذي ينهش روحه، فكان الهجاء ملاذًا لإنسان لم يجد من يفهمه ولم يحتوِ نفسه الثكلى.

ويقول [٢٠]:

آيَسْتُ مِنْ دَهْرِي وَمِنْ أهْلِه فَلَيْسَ فِيهِم أحَدٌ يُرْضَى
إنْ رُمْتُ مَدْحًا لَمْ أجِدْ أهْلَهُ أوْ رُمْتُ هَجْوًا لَمْ أِدْ عِرْضا

نجد في البيت الأول اعترافًا صريحًا باليأس الكامل، وهو يأس لم يأتِ من فراغ، بل من صراعٍ مع زمنٍ خذله، وأهلٍ لم يرتضِ منهم أحد، ويتجلى في البيت الثاني يتجلى أقسى كلام (عِرْضا) يمكن أنْ يقوله هاجٍ؛ لأنّه يرى مجتمعه خصمًا لا قيمة له ولا يستحق أنْ يُذم. والقصدية هنا هي التعالي بالهجاء فابن الرومي يهينه زمانه وأهله مرتين؛ مرة حين آيس منهم، ومرة حين اعتبر أعراضهم أتفه من أنْ تُهجى. والصراع النفسي هنا قد وصل مرحلة الاغتراب الكامل، فهو شاعر يملك معايير عالية في عالم رخيص بنظره.

٣- الرثاء :

وهو من الموضوعات البارزة في الشعر العربي، إذ طالما بكى شعراؤنا من رحلوا عن دنياهم وسبقوهم إلى الدار الآخرة، وهو بكاء يتعمق في القدم منذ وُجدَ الإنسان، ووَجَد أمامه هذا المصير المحزن: مصير الموت والفناء الذي لا بدّ أن يصير إليه ،فيصبح أثرًا بعد عين، وكأن لم يكن شيئًا مذكورًا[٢١].

وعلى الرغم من قلة قصائد هذا الغرض في ديوانه بيد أنّه كان من أصدق ما قاله، وأكثر من لائمه الرثاء لأنّه عبّر عن حزنه العميق وصدح أنغام الشجن، ذلك لأنّ القدر لم يعصف بشاعر كابن الرومي، ولم يطرق الحزن بابًا كطرقه لبابه، ولم تفجع الأيام إنسانًا بقدر فعلها بهذا الشاعر. وهو أحبّ أسرته كثيرًا هذا ليس شيء جديدًا فالكلّ يحبّ أهله، لكن أسرته كانت الملاذ الوحيد الذي يحتوي خيبته ونفسه المكلومة في مجتمعه، فحين رصدت سهام الموت أسرته وجدته يرثي الراحلين منهم مراثي مؤثرة، فرثى أمّه، وزوجته، وأخوه، وخاله، وخالته، وأبناءه، فكان تتابع الموت في أسرته كسريان النار في الهشيم، وهذا ما جعل فجيعته على نفسه التي عانت كثيرًا أقل مقارنة بتفجّعه على أهله لعظمة فقدانهم، فأحبّ أسرته ففارقوه وأحبّ الناس فخذوله، فتُرك ليواجه الاغتراب وحده، وما أقسى الاغتراب على الحس المرهف والنفس الشاعرة. و"الذي يقرأ شعره يحزن للشاعر وسوء حاله أكثر مِمّا يحزن للفقيد "[٢٢]، فهو يرى في فعل المنايا التي أخذت أعزّ من هم على قلبه منتهى القسوة، والتعمّد، والانتقاء لأفضل وسائل إيذائه وإيلامه، فأصبح يرى القبر مكانًا يرضى عنه ويمدح الموت نكاية في الحياة. **وقال يرثي ابنه هبة الله** [٢٣]:

أَبُنَيّ إنّك والعَزَاءَ مَعًا بِالأمْسِ لُفَّ عَلَيْكُمَا كَفَنُ
أَبُنَيَّ إنْ أحْزَنْ عَلَيْك فَلِي فِي فَقَدتُكَ سَاعةً حزنُ
بَلْ لا إخَالُ شَجَاكَ تَعْدَمَهُ رُوحٌ ألَمَّ بِها ولا بَدَنُ

هذه القطعة المرّة الدفينة التي ينْحب فيها ابن الرومي وتنزف روحه، ولوعته لم تشفَ بعد من صرخة رثائه لابنه محمد، حتّى أساه القدر لهيبًا في الضلوع بفجيعة ابنه الثاني (هبة الله)، ولم تكن هذه الفجيعة حزنًا عابرًا بل انطفاء لروح ابن الرومي، فهو كان يستند الى أولاده ليواجه دهره، وإذا به أمام مصيبة سلبته الابن والعزاء معًا، فبقي وحيدًا بلا سكنٍ ولا سلوان، وهو يصوّر الحزن كأنّه نصيبٌ ملازمٌ لا يفارق روحه ولا يغادر جسده، وأقصى درجات هذه الفجيعة تجلّت في شعور الشاعر بأنّ الدُّنيا قد ضاقت عليه واغترب عنها، فنفرت نفسه من الوطن الذي يجمعه بالأحياء، وصار يرى الوطن الحقيقي هو الدّار التي ضمّت ابنه تحت الثرى؛ فالموت هنا لم يسلب روح ابنه فقط بل سلب طعم الحياة وأمانها في عين أبٍ مكلوم.

وهذه الأغراض لم تكن مجرد فنونٍ أدبية بل كانت ساحاتٍ للاشتباك النفسي مع الوجود، وأثر هذا الصراع تجلّى في تلك الحيرة المفرطة والقلق المستمر تجاه كلّ ما حوله، فكلّ قصيدة كانت محاولة يائسة لترميم ذاتٍ هدّمتها فواجع الدهر، وبحثًا عن وطنٍ لا يغدر به وإنسان لا يخذله.

ومع كلّ هذا ظلّ شعر ابن الرومي يمثل الصرخة المفجوعة لإنسان عاش حياته ممزّقًا بين مثالية روحه وقسوة واقعه، فكان شعره هو الملاذ الأخير والوحيد الذي استطاع من خلاله أنْ يلمس حدود الأمان.

خاتمة البحث:

وختامًا نصل إلى أنّ هذه الألفاظ عند ابن الرومي لم تكن كلمات منظومة، بل هي قصّة مأساوية اختصرت وجع روحه واغترابه. واتضح كيف أنّ تجربة الفقد المريرة كانت هي من تختار ألفاظه وتغلب على أغراضه الشعرية، فهو لم يبتعد عن الحياة إلّا خوفًا من غدرها وخيبة الأمل فيها، ولم يذكر الموت ويكثر بذكره إلّا لأنّه رآه يتربص في كلّ صورةٍ ومسمع. وتميّزت لغة ابن الرومي بفصاحةٍ عالية وقدرةٍ تعبيريةٍ فائقة، حيث لم يقف شعره عند حدود النظم التقليدي، بل ارتكز على "الصورة القصصية" والتدفق السردي، مما جعل من القصيدة لوحةً بلاغيةً متكاملة التفاصيل تُحاكي الواقع وتُجسّد الحدث.

واستطاع أبو حسن أنْ يجعل من القصيدة مرآةً عكست صراعاته الداخليّة بين يأس يطوّق عنقه وأملٍ مهزوم؛ ليُؤكد في النهاية أنّ الموت في ديوانه لم يكن نهاية جسدية فقط، بل هو الوطن الذي بحث فيه عن أمانٍ مفقود. وإنَّ سعةَ الشعرِ وعمقَ التجربةِ عند الشاعرِ فرضتْ عليّ أنْ أبذل الجهد لإحصاءِ ألفاظِهِ وتبويبِها؛ فجمعُ شتاتِ هذا الديوانِ في معجمٍ دلاليٍّ هو أقلُّ ما يمكنُ تقديمهُ كاستحقاقٍ أكاديميٍّ لشاعرٍ بقيمةِ ابن الرومي.

هوامش البحث:

(١) معجم المصطلحات الأدبية : نواف نصار ، ط ١، دار المعتز للنشر و التوزيع ، عمان ، ١٤٣٢هـ _ ٢٠١١م: ٦٩.

(٢) التجربة الشعرية عند ابن المقرب: عبده عبد العزيز قلقيلة ، ط ١، النادي الأدبي ، الرياض ، ١٤٠٧هـ _١٩٨٦م : ٦٧.

(٣) الديوان : ٦٢٤/٢.

(٤) المصدر نفسه : ١٧١٢/٤.

(٥) المصدر نفسه : ٣٢٨/١.

(٦) المصدر نفسه : ٣٢٨/١.

(٧) المصدر نفسه : ١٦٤٨/٤.

(٨) المصدر نفسه : ٤/ ١٤٧٠.

(٩) ابن الرومي حياته من شعره ، عباس محمود العقاد ، مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة ، القاهرة ، ٢٠١٢ : ٤٥.

(١٠) ابن الرومي في الصورة والوجود، علي شلق ، ط ١، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت _ لبنان، ١٤٠٢هـ _ ١٩٨٢م : ١٠٨/١

(١١) الديوان : ٢١٢٩/٦ .

(١٢) المصدر نفسه : ٣٦٢/١.

(١٣) ينظر : معجم المصطلحات الأدبية ، إبراهيم فتحي ، التعاضدية العمالية للطباعة و النشر ، تونس ، ١٩٨٦ : ٢٢٢.

(١٤) الديوان : ٩١/١.

(١٥) المصدر نفسه : ٦٣٧/٢.

(١٦) معجم المصطلحات الأدبية ، نواف نصار ، ط ١ ، دار المعتز للنشر و التوزيع ، الأردن ، ١٤٣٢هـ _٢٠١١م : ٢٩٥.

(١٧) الديوان : ١١٦١/٣.

(١٨) ينظر : ابن الرومي في الصورة و الوجود : ٢٧٨ .

(١٩) الهجاء و الهجاءون في الجاهلية ، محمد حسين ، مكتبة كلية الآداب بالجماميزت ، الاسكندرية ، ١٩٤٧ : ١٢.

(٢٠) الديوان : ١٤٢١/٤.

(٢١) فنون الأدب العربي الفن الغنائي الرثاء ، شوقي ضيف ، ط ٤ ، دار المعارف ، القاهرة، د.ت : ٥/٢ .

(٢٢) أروع ما قيل في الرثاء ، إميل ناصيف ، ط ٢ ، دار الجيل ، بيروت : ٤٣.

(٢٣) الديوان : ٢٥١٥/٦ .

المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم .
- ابن الرومي حياته من شعره، عباس محمود العقاد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.
- ابن الرومي في الصورة والوجود، د.علي شلق، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت_لبنان، ١٤٠٢هـ_١٩٨٢م .
- أروع ما قيل في الرثاء، إميل ناصيف، ط٢، دار الجيل، بيروت، د.ت .
- التجربة الشعرية عند ابن المقرب، عبده عبد العزيز قلقيلة، ط١، النادي الأدبي–الرياض، ١٤٠٧هـ_١٩٨٦م.
- ديوان ابن الرومي، لأبي الحسن علي بن العبّاس بن جريج، تح: حسين نصار، ط٣، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٤هـ_٢٠٠٣م .
- فنون الأدب العربي الفن الغنائي الرثاء، شوقي ضيف، ط٤، دار المعارف، القاهرة، د.ت .
- معجم المصطلحات الأدبية، إبراهيم فتحي، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، تونس، ١٩٨٦م.
- معجم المصطلحات الأدبية، نواف نصار، ط١، دار المعتز للنشر والتوزيع، عمان، ١٤٣٢هـ_٢٠١١م .
- الهجاء والهجاءون في الجاهلية، محمد حسين، مكتبة كلية الآداب بالجماميزات، الاسكندرية، ١٩٤٧م.